

## فصول مختصة في الفلسفة الألمانية

## ٨ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

للأستاذ خليل هندواي

## شوبنهاور

« Schopenhauer »

١٧٨٨ - ١٨٦٠

هذا هو شوبنهاور الذي طبع الفلسفة الألمانية بطابع التشاؤم ، فتركها مظلمة قائمة ، يخال الجائع إليها أنه نازل في أنفاق بعضها أقم من بعض . نشأ نشأته الأولى بهدوء وسكينة ، لا يكاد الناظر إلى وجهه النحاسي يتبين أن وراء هذا الوجه خيوطاً سوداء متصلة بقلبه الأسود ؛ وقد خانه الجد في أول عهده كما يخون العطاء ، فكبا فاستثقل أن ينهض من كبوته ، فما زاده ذلك إلا حقدًا على الناس ومبالغة في الانتقام منهم . اتخذ رسله إلى الناس الكتب ؛ فكان أول كتبه « الجدور الأربعة لبند السبب الأتم » ، تخاض كتابه في صفوف الناس فلم يلق إلا فشلًا ، لأنه لا يزال خامل الاسم ، ولما تزل سحابة الحزن مخيمة على ألمانيا المزورة المجرحة ، فالناس في شغل عن الفلسفة والفلسفة في شغل عنهم ، ولكن شوبنهاور التشائم لم يثنه ما أصاب كتابه عن مواصلة السعي ، فأعد عدته لحدث عظيم يترك وراءه دويًا ، فذق بكتابه « العالم إرادة وتمثيل » وهو خير كتبه ، وأكثرها تمثيلًا لشخصيته . فيه من فلسفته الشيء الكثير ، ومن الشعر الشيء الكثير . . . ولكن ذلك لم يقعد ببعض حاسديه عن أن يحملوا على الكاتب وينالوا منه . فاستهل مطلع الجزء الثاني من كتابه بهذه الأبيات (وهي لغوي)

« لماذا تنفر منا ؟

وترى بآرائنا . . .

أنا لا أكتب لأسرك وأهيجك

ولكني أكتب لأعلمك شيئًا »

وقد أسلم كتابه إلى الطابع وولى وجهه شطر إيطاليا موطن الفن ، دون أن يرتقب ما يتركه كتابه من تأثير ، فقضى

فيها زهاء عامين يحيا حياة بسيطة ، هادئة . ويرود مواطن الآنار متأملًا في تلك العظمة الفائرة في تلافيف التراب . وقد كانت له ميول غريزية للفن ؛ وكم متع النفس - في حدائته - بمباهج الحياة ؛ حتى إذا آب إلى برلين افتتح شعبة خاصة في الجامعة ، ولبت شوبنهاور يرتقب عبثًا من يسمع له ، أو يأخذ عنه ، حتى يئس من نجاحه ، ونبرم بمذهب « هيغل » الذي يحتل ذهن الجامعة ، وهو - عنده - مذهب الجنون والحال ، فما أشد مقته لأتباع هذا المذهب ، ولليهود ذوى الأثرة ، والنساء اللواتي يخرجن الكون من قلق إلى قلق . عاد إلى إيطاليا ليتم دراساته الفنية ، ثم أقام في « فرانكفورت » وبعد جهاد خمسة عشر عامًا مشت إليه الشهرة ذليلة بمد صدود ، متفاداة بعد جموح ، ولقي حتفه عام ١٨٦٠ . وهكذا قدر لشوبنهاور أن بصرع مذهبه الجديد مذهب « هيغل » الذي تقطعت أسبابه ، وتفككت روابطه ، وشغرت الأفكار من بعده وأصبحت تتقبل أي مذهب كان يبعثه مجدد !

يعتقد شوبنهاور بأنه هو الوارث الحقيقي لتراث « كانت » وأن « فيخت وشيلنغ وهيغل ما هم إلا أطفال فاسدون » ، يرى أن كانت نحا بالفلسفة منحي جديدًا ، وسار بها في منهاج واضح ، أما أتباع كانت فقد ذهبوا بالفلسفة مذهبًا وعمرًا لا مأمّن فينه لسالكه ، وأقموها في بقاع هي فوق « المحسوس » تتماق أجزاؤها ، وتتلاق أشلاؤها في نقط مظلمة مبهمه . والآن قد آن للفلسفة أن تدرس حقائق الأشياء الوجودية . « وأن الطريقة المثلى في تأمل الوجود ، والوقوف على أطواره ما يصل بنا إلى مواطن الأشياء ، وحقيقة أكنائها الخفية ، ويطلعنا على سر ما يمكن وراء كل حادث ، لا تسأل الكون من أين أتى ؟ وإلى أين يمضي ، ولماذا وجد ؟ ولكنها في كل لحظة وفي كل خطرة تود أن تعرف ما هو ؟ » وهكذا تحول مجرى العلم النظري الذي كان يجرى وراء الخيال ، وعاد ينقل من التجارب ما سلم بها الاختبار ، ويشرح لنا ناموس الوجود حسب وضعه

يقول شوبنهاور : العالم هو أين تمثيلي وتصويري ، وأين الحقيقة التي تصورها احساساتي التي يحولها الفكر إلى معارف . وشوبنهاور لا يتخطى بهذه الفكرة ما اقترضه معلمه « كانت » من قبل . ولكن العالم عنده هو إرادة ، هو ميول عمياء أو غريزة قاهرة عند الكائنات ، وفاعلية حساسة عند الانسان ، ولكنها

وبرغم ما بذله شوينهاور في إعلام شأن مذهبه ، وإظهار خطره ، فقد قسا عليه النقد ووجد في مذهبه خطر أهدد أمانى الإنسانية ، ويقتل كل ما حملته معها منذ فجر الخليقة حتى الآن ، وأرادوا من شوينهاور أن تهديه النتيجة التي بلغها في أول مراحلها « الحياة هي جهاد عنيف » لا إلى مناصرة الأمل القوى ، وتثبيت جذوره السامة في قلوب البشرية ، بل إلى تخفيف ألقاله الراضحة على الكواهل والنوارب . فيعمل بذلك على إخماد الحياة وتكثيرها ، وجعل رسالته رسالة رضاً وابتسام ، لا رسالة سخط وامتناض ولكن هب أن شوينهاور كان فاقداً لروح التفاؤل ، فما هو سر انتشار مذهبه الأسود بين الناس ، وقد علموا أن الحياة لاتندو بمذهبه إلا متجهمه قاطبة . فهل كان شوينهاور معبراً عما يجول في صدور قومه ويخفق في قلوبهم ، كما كان معبراً عما يختلج في صدره وفي قلبه ؟ قد يكون احتمال الاثنيتين معاً من أكبر العوامل التي جعلت من شوينهاور نبياً للتشاؤم محترماً في قومه ، وإن كان صاحب التشاؤم قريباً لا يقبل صحبته غراب

لقد كان شوينهاور وركن تظله غمامة سوداء ، كثير أهزؤه ، نسيج وحده في خلقه . جاءت فلسفته ابنة طبعه ، يحاول أن يقنع بها نفسه ، لا الناس ، لأنه يشعر أن الناس واجد أكثرهم في الحياة نوراً وسعادة ، ولكن نفسه لا تبصر من هذا النور شيئاً على أن أسلوبه الفلسفي هو الذي أحياء ، برغم أن اعتقاده - بالبوذية - لم يقم أمره كذهب . لأن العقول لا تقبله وإذا قبلته فلن تفهمه . أما أسلوبه فهو يفرى ويعلم النفس جلالاً . فتفكيره فيه جد وصرامة ، يقلب المنطق على أقواله حتى في الأشياء البعيدة ، يدل استشهاده الكثير على سعة اطلاع ، وقد بلغت منه قوة الملاحظة مبلغاً عظيماً ، حتى لتأتى الفكرة منه مبنية على خطأ ، وتأتى أجزاءها صحيحة سليمة ، كأنها البشاعة مبسطة بالجمال ؛ وهو فياض الخيال الذي يتدمج مع الفكر دون ما نفور . ولعل أعظم ما جاء منه « فكرة الإرادة » التي بان تأثيرها في الأجيال التي عقبته جيل شوينهاور ؛ فما زالت هذه الإرادة تتطور وتنمو حتى أوجدت لنفسها كياناً في العالم الفلسفي والعالم المادى ، ولعل « نيتشه » هو أكبر مولود وضمته الإرادة الجبارة بين يدي الحياة ما

إرادة متمثلة في كل شيء ، هي جهاد عنيف في سبيل الحياة ، تسمى (١) لبيسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها ، الإرادة هي الشيء القائم بنفسه الذي لا يتفد إليه فناء . الحياة هي العمل وقد يُجئ للبالغ هذه النقطة من فلسفة شوينهاور أن صاحبها يريد أن يبشر بالفعالية المستمرة والجهاد المتواصل الذي لا يد منه لحي ، ولكن شوينهاور لا يبلغ بك هذه النقطة إلا ليحمل الى نفسك فكرته المسمومة التي تجمل من الدنيا كهفًا مظلمًا ، ومعتكراً تتطاحن فيه الأرادات . بصرع بعضها بعضاً : ألم بصرع ألقا ، وأمل منسول بالدمع يصارع أملاً مخضياً بالدم الحياة جهاد عنيف . والجهاد العنيف سبب باعث للألم والشقاء . والكائن كلما زاد سموً ورقياً زاد تأله وشقاؤه . وذو النظام المتسق أكثر شعوراً بالألم من ذي النظام الناقص المضطرب . أما الشجرة فلا تألم ، فهي غير حساسة . أما رجل العقل ورجل العبقرية فهي أكثر شقاءً وألمًا ممن خلُفوا محدودى المدارك ، ضيق الآفاق . والحياة - مهما تجردت - لنا منها حاجات تزيد إدراكها ، وزيد أن ندركها كاملة ، والكمال ظل طارىء لا يثبت ، وقد تجر الحاجات حاجات مثلها مما يجمل الحياة - حسب هذا المقياس - لاتتطوى إلا على شقاء ، فلا ندرك كل ما نتمنى ، ولا تقعد عن التمنى :

وشوينهاور إزاء هذه الحالات الغامضة ، وجد كاله وراحته في المذهب البوذي الذي يجرد عن النفس الألم لأنه يقصيه عن الاشتغال في الحياة ، ويدعوه إلى الفناء المطلق في الوجود ، والتأمل في آياته تأملًا ساكنًا ، خاليًا من الرغبة والشعور

هذا هو شاطىء النجاة القائم التي أوتت اليه سفينة شوينهاور بعد أن طافت في أكناف المحيط أعوامًا ، وهو مذهب كان صاحبه قد استمد من تلك السحابة السوداء التي غشيت ألمانيا في عقلها وشعرها وفلسفتها . ومن خيبة طويلة رافقته أكثر أيامه وقد وجد الناقدون القائلون بتأثير الوراثة أن شوينهاور قد اقتبس من أمه الأيم نظراتها السوداء ، وعن أبيه أخذ الإرادة . ومهما كان تأثير هذه الوراثة الثنقلة بعيداً في نفس شوينهاور ، فهو تأثير ضعيف إزاء تلك الموجة التي اكتسحت القطر الألماني جميعاً بما فيه من أدب ومذاهب وشعر وفلسفة

(١) لعل هذه الإرادة هي نفس « الذات المطلقة » عند فيخت - وقد رأينا الذات تسمى لبيسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها «